ثم اتصلت بالشرطة ورؤسائها في المدينة، وكانت وسيلتها إلى هذا الاتصال معرفتها للشبان، ومخالطتها للرجال، وانسلالها إلى بعض الدور واستماعها لكثير مما يُلقى من الحديث، وعلمها بكثير مما يقع من الحوادث ويلمُّ من الخطوب، فكانت عينًا من عيون الشرطة تنفذ إلى كثير جدًّا مما لا تنفذ إليه عيون الرجال، وكانت تفيد من ذلك مالًا، وتكسب من ذلك هيبة، فكان الناس يخافونها، ويتلطفون لها، وكانت الشرطة تستعين بها استعانة خاصة خصبة حين يُصرع صريع بالليل، ويبحث المأمور وأعوانه عن القاتل فلا يظفرون به، هنالك كانت تنقل إليهم ما تسمع من الأحاديث في بعض أندية الشباب وفي داخل كثير من البيوت، وحين يعتدي اللصوص على دار من الدور ثم تعمى آثارهم وأخبارهم على الشرطة، وكانت أنفع ما تكون للشرطة وأقدر ما تكون على إعانتها حين يهاجم الطاعون أو الكوليرا أو أي وباء من هذه الأوبئة أهل المدينة وما حولها من القرى، وحين تريد الحكومة أن تستكشف المرضى وتعزلهم في تلك الخيام التي كان يكرهها الناس أشد الكره ويفرون منها أكثر مما يفرون من الموت.

هنالك كنت ترى «زنوبة» حركة متصلة كأنها النحلة، لا تستقر ولا تهدأ ولا تعرف السكون والاطمئنان، هي في كل شارع وفي كل حارة وفي كل زقاق وفي كل بيت، ونقالة الصحة من ورائها تجوب الشوارع والأزقة والحارات وتختطف المرضى من بيوتهم اختطافًا، وفي تلك الأوقات كان الناس يبغضون زنوبة أشدَّ البغض، ولكنهم كانوا يضطرون إلى لقائها واحتمالها، يبسمون لها ويلعنون الوباء لأنه لم يمسسها ولم يحملها على هذه النقالة ولم يضطرها إلى هذه الخيم التي تضطر إليها الناس.

وقد جمعت زنوبة من كل هذه الحرف مقدارًا لا بأس به من المال، فلما تقدمت بها السن بعض الشيء أخذت تستثمر ما جمعت وتنميه، وقد سلكت إلى ذلك طريقين: فهي من ناحية مرابية، تقرض الجنية بثلاثة أمثاله منجمة على العام، وتشتري من الأسواق في المدينة والقرى ما تستطيع شراءه من الحب رخيصًا ثم تبيعه بين الفقراء والبائسين، تشتط عليهم في الربح لأنها تصبر عليهم في اقتضاء الثمن، وقد زهد الشباب فيها وقلَّ نشاطها إلى اللهو الجريء، فبحثت ثم بحثت ثم اختارت لنفسها رجلًا من الخفراء غريبًا عن المدينة وفد إليها منذ حين، قوي البنية طويلًا ضخمًا، مخيف الصوت، ولكنه على ذلك ضعيف النفس، سيئ الخلق، مدخول الضمير، فاتخذته زنوبة لنفسها زوجًا أو خليلًا، وعاشت معه عيشة يقرها القانون وتنكرها الأخلاق والدين، ويمقتها أهل المدينة أشد المقت، وهي حين رأيتها لأول مرة كانت قادمة على القرية التي كنا فيها لتشتري ما